

فقه المعلم

لأحمد شوقي

كَادَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا،
يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا...
تَجِدُوهُمْ كَهَفِ الْحُقُوقِ كُهُولًا
وَهُوَ الَّذِي يَبْنِي النُّفُوسَ عُدُولًا (١)
وِيرِيهِ رَأْيًا فِي الْأُمُورِ أَصِيلًا (٢)
رُوحَ الْعَدَالَةِ فِي الشَّبَابِ ضَّيْلًا
جَاءَتْ عَلَى يَدِهِ الْبَصَائِرُ حَوْلًا
وَمِنَ الْغُرُورِ، فَسَمَّهَ التَّضَلِيلًا
فَأَقَمَ عَلَيْهِمُ مَأْتَمًا وَعَوِيلًا
مِنْ بَيْنِ أَغْبَاءِ الرِّجَالِ، ثَقِيلًا
فِي مَضَرَّعِ عَوْنِ الْأُمَمَاتِ جَلِيلًا
رَضَعَ الرِّجَالُ جَهْلًا وَخَمُولًا
هُمْ الْحَيَاةَ، وَخَلَفَاهُ ذَلِيلًا،
وَبَحُسْنِ تَرْبِيَةِ الزَّمَانِ، بَدِيلًا
أُمَّا تَخَلَّتْ، أَوْ أَبَا مَشْغُولًا

قُمْ لِلْمُعَلِّمِ، وَفِيهِ التَّبَجِيلُ،
أَعْلَمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَ مَنْ الَّذِي
رَبَّوْا عَلَى الْإِنْصَافِ فَتِيَانِ الْحَمَى
فَهُوَ الَّذِي يَبْنِي الطَّبَاعَ قَوِيْمَةً،
وَيَقِيْمُ مَنَظِقَ كُلِّ أَعْوَجٍ مَنَظِقَ،
وَإِذَا الْمُعَلِّمُ لَمْ يَكُنْ عَدْلًا، مَشَى
وَإِذَا الْمُعَلِّمُ سَاءَ لَحْظَ بَصِيرَةٍ
وَإِذَا أَتَى الْإِرْشَادُ مِنْ سَبَبِ الْهَوَى،
وَإِذَا أَصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ،
إِنِّي لِأَعْذِرْكُمْ، وَأُحْسِبُ عِبَّاءَكُمْ
وَجَدَ الْمُسَاعَدَ غَيْرَكُمْ، وَحَرَمْتُمْ
وَإِذَا النِّسَاءُ نَشَّانَ فِي أُمِّيَّةٍ،
لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنْ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ
فَأَصَابَ بِالدُّنْيَا الْحَكِيمَةَ مِنْهُمَا،
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلَقَّى لَهُ

الهوامش:

(١) العدول جمع عادل: المنصف.

(٢) أصيلاً: صائباً.



من ثروات الشعر

■ لم يزل الأدب الذي يصور خلجات النفس البشرية، ويصف أحاسيسها، ويتتبع ما يرد عليها من خطرات ومشاعر - أصدق أنواع الآداب التي يكثر تعلق القلوب بها، وانجذاب الأرواح إليها، لموضع الإطراب الزائد فيها، والأسر الموفق والتأثير القوي.

ومن هذا الضرب أدب الشوق والحنين، الذي لا يكاد يُحصى من تغنى به، فأنشد القصائد الطوال، والمقطعات الحسان، أو دبج فيه الرسائل البليغة، والخواطر البديعة.

وإنما كان حال هذا الأدب بهذا الوصف؛ لأن للشوق أثراً بليغاً في النفس، شبّهه بعضهم بالنار يطوي عليها الصدر فقال:
يا من شكا ألماً، للشوق شبّهه

في الصدر بالنار، من حرّ وتذكر
إني لأعظم ما بي أن أشبهه
شيئاً بفلس إلى شيء بمقدار
لو أن قلبي في نار لأحرقها
لأن أشجانه أذكى من النار

أدب الشوق

والحنين

إلى طيبة والبلد الأثير في الرحلات المغربية والأندلسية

بقلم / محمد رستم

ولسنا هاهنا بسبيل وصف معاناة النفس التي أضرب بها الشوق، وأضناها الحنين في فراق حبيب، وهجر قريب، فإن لذلك كتباً مبسوطة لا تخفى على الأديب اللبيب، وإنما يعيننا في هذا المقام الحديث عن لون من هذا الأدب، وهو ذلك المتعلق بأدب الشوق والحنين إلى طيبة والبلد الأمين (٢).

وكان الذي دعاني إلى أفراد هذا الأدب بهذه الدراسة أمور منها:

١ - كثرة مادة هذا النوع في كتب الأدب والرحلات، ولو تصدى باحث لجمع ما تناثر من هذه المادة لجاء عمله في ديوان كبير حافل.

٢ - غفلة كثير من أهل الأدب اليوم عن هذا اللون، وعدم اعتدادهم به، وكأنه عندهم ليس أدباً مستقلاً قائم الذات، وقصارى ما يصنعه بعضهم أن يدرجه في الشعر الديني (٣).

٣ - جودة مادة هذا النوع، وبلوغها - في الجملة - الدرجة العليا في الأداء الفني، والإبداع الأدبي شعراً ونثراً.

٤ - حاجة الأدب الإسلامي اليوم إلى الاستفادة من هذا اللون، لإغناء أغراضه وإثراء موضوعاته.

ومظنة الوقوف على هذا العدد الوفير، من أدب الشوق والحنين إلى مكة والمدينة كتب الرحلات التي غني أصحابها بوصف أسفارهم، وذكر مشاهدهم، وما اتفق لهم فيها من عجائب الأمور، وطرائف الأخبار، ونوادر الوقائع، ونخص بالذكر منها كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين أكثروا من التغني بالحجاز شعراً ونثراً مع وله شديد، وحنين بالغ. وإنما هيّج الشوق عند المغاربة والأندلسيين إلى زيارة بلاد الحجاز أسباب منها:

أ - المبادرة إلى أداء فريضة الحج قبل الفوت، ومشاهدة معاهد الإسلام الأولى في مكة والمدينة. ولقد جمع باحثٌ قائمة طويلة بمن رحل إلى الحجاز من الأعلام، فبلغ بهم عدداً كبيراً (٤).

وغلب حبُّ الحج والمجاورة على المغاربة، حتى حمل بعضهم على الإكثار منه ووجد فيهم من حج أزيد من ثلاثين حجة ومات بالمدينة (٥).

ولا يذهبن عنك أنه نشأ لهذا السبب نوع من أدب الرحلة وسُمِّى بـ: «أدب الرحلات الحجازية»، وكان أهل المغرب والأندلس أغزر الناس تأليفاً (٦) فيه، وأكثرهم لحفاً به.

ب - طلب العلم، والرغبة في لقاء أهله، لتحصيل جديد، والتفنن في غامضه، وكانت بلاد الحجاز يومئذ مستقر العلماء، وموئل الفضلاء، ومجمع النبلاء، فلا جرم أن يتعلق القلب بالرحلة نحوها والظعن إليها.

ولقد أوما العلامة ابن خلدون إلى هذا السبب، فذكر أن

رحلة المغاربة «كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة» (٧).

وأورد شهاب الدين المقرئ (١٠٤١هـ) ما يزيد على ثلاثمائة من الرحالين الأندلسيين الذين رحلوا إلى الشرق، من أجل طلب العلم وحده ثم قال: «إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علّام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب، وكثر الكلام، ولكننا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط من غير إطناب داعٍ إلى الإملال، واختصار مؤدٍ للملام» (٨).

وبعد: فما من سبيل للكلام عن أدب الشوق والحنين إلى الحرمين الشريفين في الرحلات المغربية والأندلسية إلا أن نعرض لبعض الظواهر المميزة له فيها، مع ذكر لمع منه تكون دالة عليه، فمن ذلك.

١ - وصف أحوال الشوق وذكر مراتبه.

ولقد نظرتُ فيما وقع إليّ من أدب الشوق والحنين إلى طيبة والبلد الأمين، فألفتُ أن للشوق ثلاث مراتب وهي: الأولى: وذلك عندما يتأهب ركب الحبيب للرحيل، فتشتاق النفوس إلى الحجاز، وتودُّ أن لو رحلت مع الرّاحلين، فنالت ما نالوا، وبلغت ما بلغوا، ولا تملك هذه النفوس التّواقة التي تخلفت عن الركب، إلا أن ترسل أجمل تحية إلى تلك البقاع المنيفة، والمواقع الشريفة.

انظر إلى أبي جعفر الرّعيني الغرناطي يقول في هذا المعنى:

يا راحلاً يبغى زيارة طيبة

نلت المني بزيارة الأخيـار

حيّ العقيق إذا وصلت وصف لنا

وادي مئى، يا طيب الأخبـار

وإذا وقفت لدى المَعْرِفِ داعياً

زال العنا، وظفـرتْ بالأوطار (٩)

وقد تسبق العبرات الشاعر، حين وداع الركب، فيتساءل فيم تخلفه عنه، كقول ابن المرحل (١٠) في معشراته:

نوارفُ دمعي أيها الركب برحت

بكربي فلم أبقي وراء كم فداً؟ (١١)

الثانية: قد يهيج الشوق، ويزداد الحنين، عند ذكر الحجاز وساكنه خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم، فما يستطيع الشاعر أن يكفكف دمه، انظر إلى ابن المرحل وقد أشجاه

ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول:
دوامع أجفاني إذا ذكر اسمُهُ

تفيض، وما بي غير بُعد محمد (١٢)
الثالثة: والشوق في هذه المرتبة، يزداد بدنو المراحل،
وقرب الديار، والإشراف على الورود، والإكثار من ذكر تلك
المعاهد الكريمة، استمع إلى الرحالة ابن جبير يقول: وقد
أوشك الركب على الوصول:

جرى ذكر طيبة، ما بيننا

فلا قلب في الركب، إلا وطارا

حنينا إلى أحمد المصطفى

وشوقاً يهيج الضلوع استعارا

ولاح لنا أحد، مشرقاً

بنور، من الشهداء استنارا (١٤)

وقد يبلغ الشوق مداه، ساعة اللقاء، والوصول إلى تلك
المشاهد المقدسة، فلا يملك الشاعر إلا أن يتغنى به، كقول
ابن جبير - وهو من رقيق شعره:

بدت لي أعلام بيت الهدي

بمكة، والنور باد عليه

فأحرمت شوقاً له بالهوى

وأهديت قلبي هدياً إليه (١٥)

٢ - حث المطايا على السير والجد في الظن:

ألا إن قلباً قد أشرب حبّ الحج إلى مكة، وزيارة المدينة
المنورة، لحقيق أن يجد السير، فيتعب في ذلك مطيته،
ويضني مركوبه، فتكثر الشكوى، ويزداد النصب، وفي هذا
المعنى يقول بعض الوشاحين من أهل الأندلس واصفاً حال
الراجل ومطيته:

شكوا وقد طالت السفار

هم ومطاياهم السقام

فهي قسي من التثني

والقوم من فوقها سهام (١٦)

ولشكوى المطايا حد تنتهي عنده، وذلك عند حصول
اللقاء، يقول ابن جبير في هذا المعنى من قصيدة نظمها
ارتجالاً حين تراءت له مدينة رسول الله صلى الله عليه
وسلم:

وكانت رواحلتنا تشتكى

وجاً، فلقد سابقتنا ابتدارا

وكنّا شكونا، عناء السرى

فعدنا، نباري سراع المهارة (١٧)

٣ - وصف أهوال الطريق، والصبر على وعاء السفر:

لقد صبر الراحل المشتاق إلى معاهد الإسلام الطاهرة،
على أهوال الطريق، ومتاعب السفر، فأضنى راحلته، وأفنى
جسده، وأسهر ليله، وكان مما يهون عليه هذه المشاق، طمعه
في سلامة الوصول، وبلوغه غاية ما يتمنى.

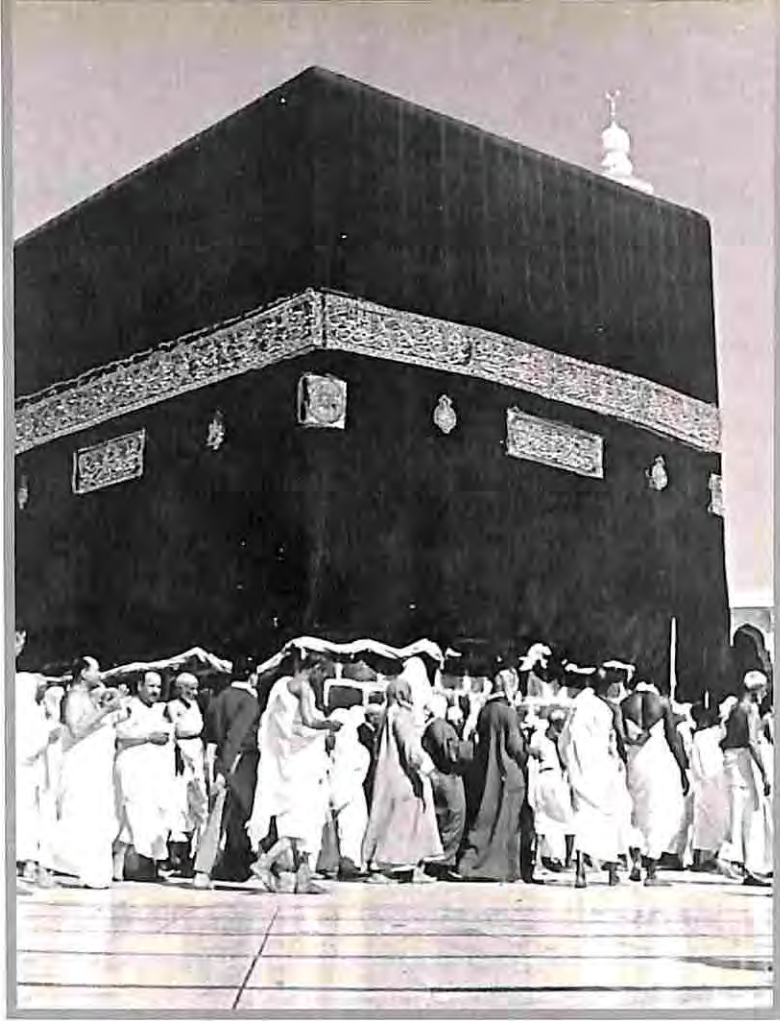
يقول الرحالة ابن بطوطة في هذا المعنى: «ومن عجائب
صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد
المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها،
متمكناً في القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبه! ولا
يفارقها إلا أسفاً لفراقها، متولهاً لبعاده عنها، شديد الحنين
إليها، ناوياً لتكرار الوفاة عليها، فأرضها المباركة نصب
العين، ومحبتها حشو القلوب، حكمة من الله بالغة، وتصديقاً
لدعوة خليله عليه السلام، والشوق يحضرها وهي نائية،
ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقي من المشاق،
ويعانیه من العناء، وكمن من ضعيف يرى الموت عياناً دونها،
ويشاهد التلّف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها
مسروراً مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا
نصباً، إنه لأمر إلهي، وصنع رباني، دلالة لا يشوبها لبس ولا
تغشاه شبهة، ولا يطرقتها تمويه! وتعز في بصيرة
المستبصرين، وتبدو في فكرة المتفكرين....» (١٨).

وكان الحجاج يعدون العدة الكافية، لمجاوزة الأهوال،
وتخطي الصعاب، لا يخشون تلفاً ولا عطباً.

يقول الرحالة المغربي محمد بن عبدالسلام الدرعي (١٩)
(١٢٣٩هـ) واصفاً وحشة بعد البراري في الطريق إلى مكة:
«... وبات الناس الليلة الأخيرة - مبيت ركب الحاج ببركة
النبي صلى الله عليه وسلم - فيما شاهدت في رغد عيش،
ومزيد بسط والحجاج في جد واجتهاد من شدّ الأقتاب،
وتعديل الأعمال، وملء القرب، مستقبلين البرية العظمى، برية
ما بين مكة ومصر، مسيرة أربعين يوماً جادة.. وليس في
البراري التي يسلكها المسافر في سائر أقطار الدنيا أوحش
منها، ولا أقفر، وأرضها فيما بين رمل وحروشة تامة، لا
يمكن لأحد المشي بها إلا بالمداس، بل أينما جئت مكة لا
تخلص إليها إلا بعد عناء وخوف مما احتف بها من هذه
البرية» (٢٠). ولم يكن حال راكب البحر، بأفضل من حال
الراجل في البراري، فهما معاً عرضة للتلف والخطر.

ولقد تحدث ابن العربي الأندلسي ثم المالكي (٥٤٣هـ)
في وصف بليغ بارع عن أهوال البحر في الطريق إلى الحجاز
فقال: «... فلما حان وقت إقلاع المراكب في البحر إلى ديار
الحجاز، اعتزمنا فركبناه بعد أن وعيت جملاً من المعلومات،
تفسيرها في موضعها مسطور، فركبناه وقد سبق في علم

عندها انهضوا شوقاً إلى أحباء البحر ومشاهدة معاهد الإسلام الأولى



لا عيش من دونها يطيب
لا حبذا دونها العُروس
والماء والشَّادَن الرَّبِيب
وحبذا الرَّمْل والقِفَار
والعربُ في تكلم الخيام
وأُمُّ غِيْلان ظَلَّتْني
والأيك، والأثل والذُّمام (٢٢)
وربما تذكر بعضهم طريقه إلى الحجاز، ومشاهده في تلك
البلاد، فأنشد مشتاقاً، كقول عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب
السلمي (٢٣٨هـ):
لله در عصابة صاحبته
نحو المدينة تقطع الفلوات
ومهامه قد جُبِته ومفاوز
مازلت أذكرها بطول حياتي (٢٣)
ولابدَّ للمشتاق الولهان من الصبر على الشدائد والخطوب،
واستشعار الجلد، والأنس بالغرابة، والألفة بالوحدة، يقول ابن

الله أن يعظم علينا بزوله، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من
البحر خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى
بيوت بنجد كعب بن سليم، ونحن من السَّغب على عَطَب، ومن
العري في أقبح زيٍّ، قد قذف البحر زقاق زيت مرَّت الحجارة
هيئتها، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحتزمتها أزراراً،
واشتملناها لففاً، تمجُّنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار...» (٢١).
وكان بعض المشتاقين يجد في قطع المسافات، والسير
في الفوات، لذةً وأنساً، يقول بعض أهل الأندلس في ذلك
مخاطباً ركب الحجيج:

كم قلت والصبر مستعار
للكب إذ غادروا المنام
ونسمة الشوق حركتني
وزاد بي الوجع والغرام
قوموا فقد طال ذا الجلوس
وبادروا زورة الحبيب
تاقت إلى طيبة النفوس

جبير وقد تراءت له المدينة المنورة:

دعاني إليك هوى كامن
أثار من الشوق ما قد أثار
فناديت لبيك داعي الهوى
وهل كنت عنك أطيق اصطبارا
ووطنت نفسي بحكم الهوى
عليّ ولت رضى اختيارا
أخوض الدجى، وأروض السرى
ولا نطعم النوم إلا غرارا
وأجدر من نال منك الرضى
محب ثواك على البعد زارا
عسى لحظة منك في غد

ثمهد لي في الجنان القرارا (٢٤)
وكان مما ينسى المشتاق مخاطر الطريق، ويذهب عنه
وعناء السفر، حسن استقبال أهل الحجاز له، وحفاوتهم به.
يقول ابن عبدالسلام الدرعي: «... ولما نزلنا الحرة، نزلنا
وبها بأهل المدينة التقينا مشاة وركبانا، نساء وصبياناً،
وشيوخاً وكهولاً، وشباناً أحراراً وعبيداً وولدانا، لا ترى العين
أجمل صورة، وأطيب كلاماً، وأحسن أخلاقاً، وأتقن نظاماً،
كيف وقد تمتعوا بجوار سيد المرسلين... لا تسمع منهم إلا
مرحباً أهلاً وسهلاً طيباً آنستم، بلغتم» (٢٥).

٤ - وصف اللقاء والفرح بسلامة الوصول

كانت فرحة وصول المشتاقين إلى مكة والمدينة عظيمة،
يعجز لسان الواحد منهم أو قلمه عن وصفها، والإحاطة بها،
كيف وقد تحقق المراد، وحصل المطلوب؟! وحمد القوم
السرى، ونالوا من رب رحيم أحسن القرى. فربما أصيب
بعضهم بالدهشة لقرب المزار، فانطلق بذلك لسانه، كقول أبي
عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن
مليح (٢٦)، وقد وصل إلى مكة المكرمة: «... وحين حمدنا
السرى ووصلنا إلى أم القرى، وعلمنا أننا أضياف الله،
فظفرنا منه بحسن القرى، وتبدت لنا الكعبة الغراء في
أستارها، وتجلت لنا المليحة بأنوارها، وهي تقول بلسان
حالتها:

إليّ إليّ يا عشاق حسني
فهذا الوقت، وقت لا يضاها
فكأس وصالها، قد دار صرفاً
وشمس جمالها أبدت سناها
فأين يصاب مثل عروس حسني
وما في الكون معشوق سواها

وقد سعدت عيون قد رأتها

وقد شفيت عيون لا تراها
..... فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام، بالإجلال
والإعظام، واصطفاه، وجعل حماها مباحاً رحباً لمن حام
حول حماها، وحرماً آمناً لمن دخل إليه، ووفى ما عليه حين
وافاها» (٢٧).

ويصف القلصادي الأندلسي (٨٩١هـ) دهشته عند
الورود على المدينة المنورة قائلاً: «ثم في صبيحة يوم
الأربعاء وصلنا إلى المدينة المعظمة، ودخلنا الحرم الشريف،
والمقام المنيف، وقد كساه المولى الجليل الهيبة والتعظيم،
فأشرقت أنواره، ولاحت أسرارها، وبرزت آثاره فلا يخيل
الخاطر تلك الأحوال، ولا تتعلق له تلك النفاس فيما قبل
بالبال، فسلمنا عليه صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم،
والنفس في دهش والقلب في التهاب وعطش...» (٢٨).

ويمضي الرحالة العبدري (٢٩) (من أهل القرن السابع)
في وصف وروده على البلد الأمين بطريقته البليغة البديعة
قائلاً: «... يا له مشهداً شهد له التنزيل بالتفضيل، وسما عن
أن يقرن بعدل أو مثيل، ما كاده أحد إلا وشباً حده قليل، ولا
مال إليه بظلم إلا والآفات عليه تميل، ألم تر كيف فعل ربك
بأصحاب الغيل، بلد كان نفوس الخلق عجنّت من طينته،
فالخواطر مشغولة بتصور زينته، انزعج نحوه عقل طالما
سار على هيئته... كم حوى من مآثر لا تحد، كم ضم من
مفاخر لا تعد، كم به من أشعث دعوته لا ترد، توده الدنيا
وهو يعلم ما يود... حرم لا يهتك حماه، شرف لا يحط علاه،
علم لا يجحد هداه، من أمه من قفر النية هداه، إن حله مناد
استقام منه ما أناد، إن رآه الصعب سلس وانقاد، يسلو به
الفتى عما ألف واعتاد... ما عسى أن يذكر العارف، ما عسى
أن يسرد الوصف، ما عسى أن يمدح السالف والخالف، ما
عسى أن ينقص من البحر الغارف...» (٣٠).

وللقاء روعة تجود لها قريحة الشاعر المشتاق، فينطلق
شادياً، انظر إلى البلوي (٣١) (توفي قبل ٦٨٠هـ) وقد وصل
إلى ثنية المدينة المنورة يقول: «... وأرسلت دمعي سجالاً،
ونظمت ارتجالاً:

الله أكبر حبذا إكباره
لاح الهوى وبدت لنا أنواره
لاحت معالم يثرب وربوعها
مئوى الرسول، وداره، وقراره
هذا التّخيل وطيبة ومحمد
خير الورى طراً، وها أنا جاره
هذا المصلى والبقيع وها هنا

● هؤلاء الرحالة أكثروا من التغني بالحجاز: شعراً ونثراً

● أهوال شديدة في البحر والبر.. ولكن الشوق أقوى

أشدُّ من وقفة الوداع
ففارقوا تلك المواضع، والقلب في وله، والعقل في دهش،
ولسان حالهم يقول:

مَحَبَّتِي تَقْتَضِي مُقَامِي

وحالتي تقتضي الرحيل
ولم يكن شيء أكره إلى قلوبهم من منادي الرحيل، كيف
وقد استظلوا بتلك الظلال، فصارت لهم عوضاً عن الأوطان،
يقول المقرئ:

«... ومذ شممنا من أرج تلك الأرجاء الذاكية، واستضأنا
بسرُّج تلك الأضواء الزاكية، ظهر من الشوق ما كان بطن، ولم
يخطر ببالنا سكن ولا وطن، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع
الشريفة وقطن» (٢٤).

وأنا فما وجدت أصدق ولا أرق من قول ابن مليح، وقد
أزف الرحيل: «ودعنا البيت الحرام، والدموع تنسجم وتنهل،
والقلب لا يطيق وداعاً ولا تملك محبته انتزاعاً، ثم ودعنا
ساعتئذ، وخرجنا، وانصرفنا وقد تحمل لنا الحج والعمرة،
والحمد لله رب العالمين، وسرت وأنا أكفك سبل العبرات،
وأستقل العثرات، وأنشد هذه الأبيات:

أيا شغب مكة، نومي حرام

متى فوُضت عن ربك الخيام

ألفناك إلف الرضيع الرضاع

وقد يؤلمن الرضيع الفطام

سأبكك ما بكث التآكلات

وهيهات، يبدؤ مني أوام

أيا ساكنين الحمى هل يعود

لنا بعد وقع الشتات، التئام

أحن إليك حنين النياق

لهن بأكناف نجد غرام

عليهم وإن شط مني المرام

سلام، وجهد المقل السلام» (٣٥).

ومما كان يشجي الطاعن المشتاق، ويثير عبراته، ظنه أنه
قد يحال بينه وبين العودة، فيجأ بالشكوى، ويضج
بالحسرة، انظر إلى العبدري وهو يقول: «... ليت شعري، هل
أعود إليه ثانية؟ ليت شعري هل تفك هذه النفس العانية؟ ليت

ربُّع الحبيب، وهذه آثاره
هذي منازل المقدسة التي
جبريل ردد بينها تكراره
هذي مواضع مهبط الوحي الذي
تشفي الصدور من العمى أسطاره
هذي مواطئ خير من وطئ الثرى
وعلا على السبع العلاء استقراره
إلى أن يقول:

قد أمكن الوصل الذي أملتته

وكذاك حُبِّي أمكنت أسرارته

قد كان عندي لوعة قبل اللقاء

فالآن ضاعف لوعتي إبصاره

رفقاً قليلاً يا دُموعي أقصري

فالدمع يحسن في الهوى إقصاره

قد كانت العين الكريمة في غنى

عن أن يفيض بتربها تياره» (٣٢).

وكان حقاً على من بلغه الله مراده، أن يكثّر من حمده
والثناء عليه بما هو أهله، كيف ونعمة القرب من الحرمين
عظيمة، ومنة النزول بهما جلية، استمع إلى المقرئ يقول بعد
أن ظفر بحلاوة القرب:

«... فله سبحانه الحمد على نعمه التي جلّت، ومننه

التي نزلت بها النفوس مواطن التشريف وحلت

من يهده الرحمن خير هداية

يحل بمكة كي يتاح المقصدا

وإذا قضى من حجة الفرض انثنى

يشفي برؤية طيبة داء الصدى» (٣٣)

٥ - وصف لوعة الفراق.

تفنن أهل الأدب من القاصدين للحرمين الشريفين في
وصف لوعة فراق تلك المشاهد، ووداع تلك المواضع، فبلغوا
في ذلك الغاية في الإبداع والمرتبة العليا في الإجابة.
وكانت لحظة الوداع، أشد عليهم من كثير من ألوان
العذاب، ولقد صدق من قال:

ما خلق الله من عذاب

شعري في منى تُرفضُ هذه الغانية؟ فتصبح الآمال بمكة
دانية، وحبذا فيها المعرَّسُ والمقبلُ،

ألا ليت شعري، هل يساعدني الوقتُ
وتُدني لي الأيام ما نحوهُ تُقت
وهل لي إلى تلك المعاهد عودة
فسكني مغان، قربها كل ما اشتقت
وكنْتُ على أن لا أفارق ربيعها
ولكنني من شؤم ذنبي عوّقت
كان لم يكن لي في المحصب منزلُ
به من ضني جسمي، وقلبي أفرقت
ولم يصف عيشي بالصعود على الصفا
ولا أنني من صفو حال بها دُقت
ولا رحْتُ كالنَّشوان من طرب به
ومن غير كاسات الهوى ما تذوّقتُ
أباري غصون البان، إما تمايلت
لأن صرتُ مجموعاً، وكنْتُ تفرقتُ
أطالع من ذاك الجمال مطالعاً
بها طال في جنح الدجى ما تأملتُ
وكنْتُ كغصن قد ذوى من صدى به
فلما حللناها رويتُ وأورقتُ» (٣٦)

الهوامش:

- (١) انظر: كتاب «الشوق والفراق» محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي (٢٣٠هـ) (ص ٢٨)، تحقيق: د. جليل العطية، دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ.
- (٢) البلد الأمين: مكة المكرمة، وطيبة: المدينة المنورة، ولها أسماء أخرى أيضاً.
- (٣) انظر: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المديني (ج ١١ ص ٤٧)، الحسن الشاهدي منشورات عكاظ، بلا تاريخ في الرباط.
- (٤) انظر: تقرّظ عبدالحى الكتاني لصاحب كتاب «دليل الحج والسياحة» ففيه تسمية أربعين رحلة حجازية لأعلام مشهورين.
- (٥) من هؤلاء عبدالعزيز اللمطي الفاسي، وابن بطوطة الذي تعددت حجّاته وانظر: أدب الرحلة بالمغرب (ج ١١ ص ٦٨) مصدر سابق.
- (٦) من بين هذه الرحلات الحجازية لأهل المغرب والأندلس ما يلي:
١ - رحلة العبدري (٦٨٨هـ) وطُبعت.
٢ - رحلة ابن جبّير (٦٠٧هـ) وطُبعت مرات.
٣ - رحلة ابن رشيد السبتي (٧١١هـ) وحُققت.
٤ - رحلة ابن سعيد المغربي (٦٨٥هـ) التي سماها: «النفحة المسكية في الرحلة المكية».
٥ - رحلة عبدالمجيد بن علي الزيايدي الفاسي (١٢٠٩هـ) التي

سماها: «بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام»، مخطوطة
بالخزانة العامة بالرباط برقم ١٨٠٨د.

٦ - رحلة ابن جعفر محمد بن إدريس الكتاني (١٣٤٥هـ) التي
سماها: «الرحلة السامية للإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد
الشامية».

٧ - رحلة أحمد بن محمد الهشتوكي التي سماها: «هداية الملك العلام
إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام»
مخطوطة بتمكروت برقم ٢٧٦.

(٧) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص ٨٠٥).

(٨) انظر: نفح الطيب (ج ٢ ص ٥) تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي
دار الفكر ١٤٠٦هـ.

(٩) انظر: نفح الطيب (ج ١ ص ٥٤).

(١٠) هو أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي، له تأليف وأخبار وأشعار،
توفي سنة ٦٩٩هـ، انظر: النبوغ المغربي في الأدب العربي
(١٠/٢٢٦-٢٢٧) بلا تاريخ.

(١١) انظر: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المديني (ج ١١ ص ٦٨).

(١٢) انظر: المصدر السابق.

(١٣) هو محمد بن أحمد بن جبّير الكتاني الأندلسي المتوفى سنة
(٦٠٧هـ).

(١٤) انظر: الرحلة المغربية (رحلة العبدري) (ص ٩٦)، تحقيق محمد
الفاسي.

(١٥) انظر: ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي (ص ١٥) عرض
وتلخيص: حمد الجاسر دار الرفاعي الرياض، الطبعة الثانية سنة
١٤٠٣هـ.

(١٦) انظر: نفح الطيب (ج ١ ص ٥٣) مصدر سابق.

(١٧) انظر: الرحلة المغربية (رحلة العبدري) (ص ٩٧) مصدر سابق.

(١٨) انظر: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب
الأسفار) (ج ١١ ص ١٥٢) تحقيق: د. علي المنتصر الكتاني،
مؤسسة الرسالة ط. الرابعة، ١٤٠٥هـ.

(١٩) لابن عبد السلام الدرعي الناصري رحلتان حجازيتان: منهما من
الأولى نسخة خطية بخط المؤلف في الخزانة العامة بالرباط برقم
٢٦٣١د.

(٢٠) انظر ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي (ص ٥٠) مصدر
سابق.

(٢١) انظر: قانون التأويل (ص ٨٤ و ٨٥) تحقيق محمد السليمان، دار
الغرب الإسلامي الطبعة الثانية ١٩٩٠م، هذا ولابن العربي رحلة إلى
المشرق سماها شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان
منها نسخة خطية بالخزانة العامة بالرباط برقم ١٠٢٠د.

(٢٢) انظر: نفح الطيب (ج ١١ ص ٥٣) وأم غيلان: شجرة السمر،
والأيك الشجر الكثير الملتف. الأثل: شجر صلب الخشب، الثمام: ثب
زهرة السنبلة.

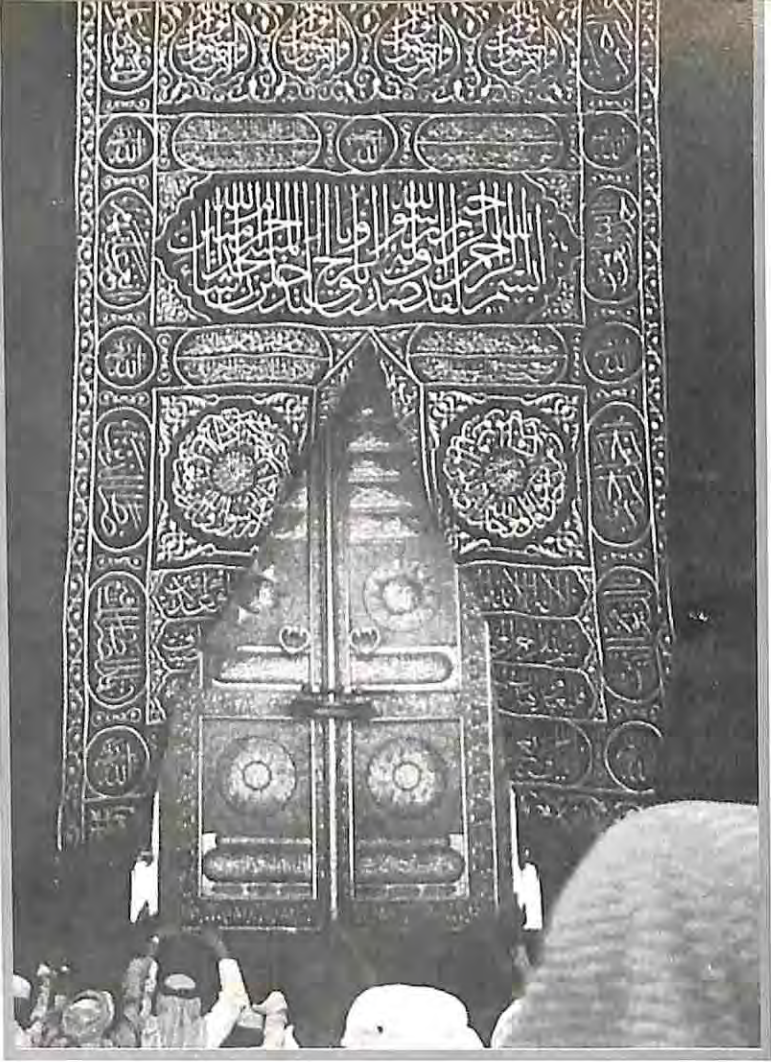
(٢٣) انظر: نفح الطيب (ج ١١ ص ٥٥).

(٢٤) انظر: الرحلة المغربية (رحلة العبدري) (ص ٩٧).

(٢٥) انظر: ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي (ص ١٥٦).

(٢٦) رحل ابن مليح - وهو من أهل مراکش - ما بين سنة ١٠٤٠هـ
و ١٠٤٢هـ، وكتب رحلة حجازية سماها: «أنس الساري والسارب من
أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب»

فأدهور مشاة وركبانا، نساء وحييانا، شيوخا وكهولا.. وقبلناهم: مكة المكرمة



فراق مكة المكرمة رأيت إثبات بعضها - وإن كان ذلك ليس من
شرطنا في هذا المقال - منها قوله:
وما جاوزت بي أرض مكة أينقي
وقد لجّ بي جهد الصباية واستشري
فكيف إذا خلى الحجاجان وراءنا
وجيف المطايا يالها كبدًا حرى
فإن حدثتني بُعد بالسّير معتقا
فلا رزقت يسرا ولا لقيت بشرى
إلى أن يقول:
وما عذّر مطروح بمكة رحله
على غير بؤس لا يجوع ولا يعرى
ويرحل عنها يستغي عوضاً بها
وحقك لا عذراً وربك لا عذراً
وانظر القصيدة بطولها في سلوة الغريب وأسوة الأريب (ص ٤٠)
لابن معصوم المدني (١١٢٠هـ) عالم الكتب الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.



وحققت.
(٢٧) انظر: أنس الساري والسارب... (ص ٧٨) تحقيق: محمد الفاسي،
فاس ١٣٨٨هـ.
(٢٨) انظر: رحلة القلصادي - أبي الحسن علي الأندلسي المتوفى ببجاية
(ص ١٤٥)، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع،
تونس ١٩٧٨م.
(٢٩) هو الرحالة المغربي الشهير، محمد بن محمد علي العبدري الحجي.
(٣٠) انظر: الرحلة المغربية (رحلة العبدري) (ص ١٧١).
(٣١) هو خالد بن عيسى البلوي الأندلسي له رحلة حجازية ستدر
الإشارة إليها.
(٣٢) انظر: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (ج ١/ ٢٨٠ و ٢٨١)
تحقيق الحسن السائح طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي، المغرب،
بلا تاريخ.
(٣٣) انظر: نفح الطيب (ج ١ ص ٥١).
(٣٤) انظر: نفح الطيب (ج ١ ص ٥٧).
(٣٥) انظر: أنس الساري والسارب... (ص ٨٩).
(٣٦) انظر: الرحلة المغربية (رحلة العبدري) (ص ١٧١) هذا وللزمخشري
- صاحب التفسير المشهور - قصيدة من غرر القصائد الفرائد في